الفصل الأول ...

الأدب العربي قبل عصر النهضة
"تاريخ وملامح"

obeikandl.com

obeikandl.com

حال الأدب العربى
قبل عصر النهضة الحديثة

١ـ الفتح العثمانى لمصر وأثره فى البلاد [١] .

ظلت مصر ما يقرب من ثلاثة قرون من الزمان ترزح تحت نير الحكم المملوكى (٦٤٨ هـ .٩٢٢ هـ) وكانت حالها تنتقل من سىء الى أسوأ فى النواحى السياسية ، والاقتصادية، والاجتماعية ثم أطبقت عليها الظلمات بدخولها تحت الحكم العثمانى، وباتت تتعثر خطاها فى هذا الليل الموحش المظلم ما يقرب من ثلاثة قرون أخرى ٠

وكانت لياليها ظلاماً دامساً ، الى أن بدأت أشعة فجر خافتة باهتة تسرى فى لياليها، مع قدوم الحملة الفرنسية ، ثم أخذت هذه الأشعة تسطع وتتسع حتى غمرتها أشعة شمس مشرقة فى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم بلغ نهارها غايته ، وتوهجت شمسُها بعد ثورة ١٩١٩م ٠

انتصرت جيوش السلطان "سليم العثمانى" على جيوش المماليك فى موقعة "مرج دابق"بالقرب من حلب سنة ١٥١٦م ، وفى سنة ١٥١٧م الموافق ٩٢٣هـ اجتاز السلطان "سليم" صحراء سيناء ، ودخل مصر ، وقضى على دولة المماليك، ثم استولى العثمانيون على البلاد العربية: العراق ، والشام ، وليبيا، وتونس، والحجاز٠

وقد كان السلطان العثمانى يتمتع فى حكم هذه البلاد بسلطات لا حدَّ لها ، وكان الولاة أيضاً مُطلقى التصرف، ومع أن مصر فقدت استقلالها ، وصارت ولاية تابعة للدولة العثمانية ، فقد قبضت على زمام الأمور فيها يد عاتية جائرة ، وكذا

---

[١] ـ يبدأ العصر العثمانى من عام ٩٢٣ هـ وينتهى عام ١٢١٣ هـ ٠

obeikandi.com

الحال فى سائر البلاد العربية ، وبتنازل آخر الخلفاء العباسيين الذى كان يقيم فى مصر للسلطان "سليم العثماني" عن الخلافة ، أصبح العثمانيون خلفاء على البلاد الإسلامية ، ووجبت لهم الطاعة بحق هذه الخلافة الشرعية، وسواء كان ما يروى من تنازل الخليفة العباسى عن الخلافة حقيقة أو أسطورة اختلقها الساسة العثمانيون فالنتيجة واحدة ، وهى أن الناس اعتقدوا فى الخلافة العثمانية، وشعروا بأن لها واجباً مقدساً فى أعناقهم ، فقوَّى ذلك من نفوذ العثمانيين، وجعل حكم البلاد العربية لهم سهلاً وميسوراً ، وقد كانت إحدى مواد القانون الأساسى للدولة العثمانية :

أن حضرة السلطان مقدس، وغير مسئول.

وقد ترتب على ذلك الظلم والطغيان ، أن خضعت الشعوب العربية لهم هذه القرون الطويلة تبكى حظها ، وتندب أيامها ، وقد سادت الفوضى فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وساءت حالة الشعوب الاقتصادية . بصفة خاصة . الى أبعد الحدود، فقد نشأ فيها نظام الالتزام ، وخلاصته :أن تبيع الدولة لرجل من رجالها ما يقدر على إدارته من جميع النواحى ، وكان يسمى "الملتزم" ويدفع للدولة ضريبة ما يقوم عليه من الأرض مقدماً ، ثم يحصل من أصحاب الأرض ما يُرضى طمعه وجشعه من الضرائب ، لا يمنعه عن ذلك قانون أو ضمير ، وكان له حق الاستيلاء على الأرض التى يموت مالكها ولا وارث له كما كان له حق نزع أى ارض من مالكٍ وإعطاؤها لمالكٍ آخر ، إذا لم يستطع مالكها ما أوجبه عليه من الضرائب ٠

ثم كان نظام السُّخْرة مع ظهور نظام "الوَسَايا" فقد كان السلطان يمنح الرجل من أتباعه مساحات واسعة من الأرض يملكها ، ويتصرف فيها كما يشاء ، وكان يفرض على الفلاحين القيام عليها وخدمتها دون مقابل ٠

وكانت هناك مظالم أخرى كثيرة، كانت تصيب الناس بالرعب والفزع ، منها :"نزلة الكشّاف" الذى يحل بالمدن والقرى ، فيحصل منه ومن أتباعه وعسكره أضرار، من نهب متاع الناس ، وإيذائهم ، وتكليفهم ما لا يطيقون فى المآكل والمشارب ٠

وقد أشار الى ذلك بعض شعراء العامية حين قال:

ومن نزلة الكشاف شابت عوارضي
وصار لقلبي لوعةٌ ووجيفٌ

وقد سادت أمثال شعبية بين الناس فى هذه الفترة ، تجسّد هذه المظالم ، وتصور هذا الظلم ، منها : "مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم" وكان من أشد الأيام على الفلاحين ذلك اليوم الذى يطلبهم فيه الملتزم ليعاونوه فى زرع أرضه، أو في ضم الزرع ، وحفر القنى وكانوا يسمون ذلك (يوم العُونة) وهى كما كانوا يقولون : داهية كبرى على الفلاحين ٠

ولذا قال عبد الرحمن الجبرتى بعد أن انتهى من الكلام فى هذا المقام :

" نحمد الله الذى أراحنا من الفلاحة، فهى- على كل حال- بلية أعاذنا الله والمحبين منها "

أما النواحى السياسية والاجتماعية، فكانت فى كل البلاد التى يحكمها العثمانيون على أسوأ ما عرف فى تاريخ البلاد العربية ٠

****

٢ ـ تاثر اللغة العربية باللغة التركية :

من الأمور الخطيرة فى سياسة الاستعمار: أن يلجأ إلى فرض لغته على الشعوب التى يحكمها ؛ لأنهم بذلك يضعفون صلة الشعب بلغته ، وبقوميته ،

ويميلون به الى لغتهم ، يتعلمها ، ويتذوق أدبها ، ويهجر لغته ؛ لأنها لا توصله الى ما ينشده من مأرب فى التقرب الى الحكام ، وتولى وظائف الدولة ٠

وهذا ما فعله الأتراك حين حكموا الشعوب ، فقد جعلوا التركية هى اللغة الرسمية للبلاد ، وكان من شروطهم فيمن يتولى أعمال الدولة: أن يكون على معرفة باللغة التركية التى هى اللغة الرسمية وزادوا على ذلك، فسلبوا اللغة العربية الروافد التى كانت تمدها، فأغلقوا المدارس واستولوا على الأوقاف التى كانت محبوسة عليها٠

ولم يبق في هذا الظلام غير شعاع نور ينبثق من الجامع الأزهر ٠

ومما لاشك فيه، أنه كان من نتيجة هذه السياسة: أن دخلت كثير من الألفاظ والتراكيب التركية ساحة اللغة العربية من أوسع الأبواب، فقد كان العامل والموظف والفلاح والجندى يسمعون كلمات تركية فى كل لحظة ، وقد تضطرهم حياتهم المعيشية الى استعمالها ٠

ولقد بقيت كثير من هذه الألفاظ والتراكيب على ألسنة المصريين ، وفى ديارهم الى وقت قريب ، بل إن بعضها لا يزال جارياً على الألسنة حتى يومنا هذا ، ومن ذلك الكلمات: عرضحال ، وكلمة برنجى بمعنى الأول ، وكلمة مخزنجى ، وغيرها من الكلمات التى تنتهى بالمقطع (جى) مثل بوسطجى ، وعربجى ، وقهوجى ، ومكوجى، وكذلك الكلمات التى تنتهى بالمقطع (خانة) ، مثل: أجزخانة ، وكتبخانة ، وغيرها٠

وقد كان من ذلك - أيضاً - أن بعض كتابنا أيضاً كان يُضمِّن كتاباته تعبيرات تركية ، نجد أمثلة من ذلك فيما كان يكتبه محررو "الوقائع المصرية" فى سنواتها الأولى ٠

ومما يذكر أن هذه الصحيفة كانت تحرر فى أول صدورها باللغة التركية ، ثم حُرّرت بالتركية والعربية ، وأخيراً اقتصر تحريرها على اللغة العربية ٠

٢ ـ انحطاط الأدب العربى فى عهد العثمانيين وأسبابه :

رغم ما ذكرناه من قبل ، إلا أنه فى العصر المملوكى كانت لا تزال هناك بوادر من الذوق العربى تجرى فى أوصال الأدب، وعلى الرغم مما لجأ إليه كتّاب المماليك وشعراؤهم من العناية بالصناعة اللفظية، كانت فى الشعر والنثر بقايا من الروح الأدبية التى يجد فيها القارئ بعض المتعة ٠

فلما جاء العصر العثمانى أخذ الأدب يلفظ أنفاسه الأخيرة ، إلا بقايا من دماء الروح كانت تتردد فى جسم الأدب العربى فى فترات متباعدة ٠

أما في الشعر : فقد استعجمت الألسنة والأفكار والمشاعر ، ونظم الشعراء بالعامية وعجزوا عن الأخيلة البديعية الخلابة ، والمعانى اللطيفة ، والألفاظ العذبة والعبارات الرصينة وقد حلت محل كل ذلك : ضحالة فى التفكير ، وجهامة فى التصوير ، وركاكة فى التعبير ، وزاد وجه المحسنات البديعية دمامة ، وروحها ثقلاً ، وظهر نوع جديد زاد به الشعر تخلفاً وضعفاً ، ذلك هو " التأريخ بالشعر " فقد كان هَمّ كثير من شعراء هذا العصر أن يوفّقوا فى نظم بيت ، أو شطر بيت من الشعر يتضمن تاريخاً معيناً ، بحيث لو حسبت حروفه بحساب (الجُمَّل) أنتجت التاريخ الذى يراد ، وكان التاريخ السائد عندهم : التاريخ الهجرى ٠

وتكمن خطورة هذا النوع فى : أنه يجعل الناظم مشغولاً بجمع الحروف والكلمات والتأليف بينها ، دون أى اعتداد بما يصير به الشعر شعراً ٠

وأما النثر : فقد نضبت منه القرائح ، وعجز الكُتَّاب عن مجاراة كُتَّاب العصر المملوكى ، رغم عجزه وفقره هو الآخر ، فقد اختفت الأساليب القوية

الرصينة ، ولولا بعض ما يجده صاحب الذوق من رقة وعذوبة أحياناً فى بعض ما كتبه الشهاب الخفاجى[١] وهو من علماء هذا العصر وأدبائه ، وما نجده من وضوح وقوة فيما يكتبه عبد اللطيف البغدادى [٢] .

وهو - أيضاً - من علماء هذا العصر وأدبائه . ولولا ما كتبه هذان العالمان الأديبان ، وكتبه قليل غيرهما مما يشبههما لقلنا : إن العصر العثمانى لم يتنفس عن كاتب تستريح النفس الى سماع أدبه .

وقد كان من أسباب تخلف الكتابة وانحطاطها فى هذا العصر : ميل الكتاب الى الكتابة بالعامية ، فقد كتبت بها الرسائل ، والكتب الأدبية ، كما كتبت بها بعض الكتب العلمية ، ومن عجب : أن السجع كان مُلتزماً أيضاً فيما كتب باللغة العامية.

وكان من مظاهر هذا التخلف: أنه لم يُكتب ولم يُخطب فى موضوعات ذات أهمية ، فلم يكن يشغل الكاتب أو الخطيب من الموضوعات الجادة ما يقف عنده الناقد معجباً .

* **<u>ومما يذكر</u>** :

أن الخلاعة والمجون فى أدب ذلك العصر قد ظهرت بوضوح ، ولعل السر فى ذلك يرجع الى : أن الناس كانوا فى حاجة الى هذا النوع ؛ لينفسوا عن أنفسهم ما يجدونه من قسوة الحياة .

---

[١] - شهاب الدين الخفاجى المصرى ، كان قاضى العسكر فى مصر ، وله رسائل وشعر ومؤلفات جيدة ، ومنها : شفاء الغليل بما فى لغة العرب من الدخيل ، وقد توفى سنة ١٠٩٦ هـ .

[٢] - نشأ عبد اللطيف البغدادى ببغداد ، ودرس بدمشق ، وتردد على القاهرة كثيراً ومات فيها ١٠٩٣ هـ وله كتاب مشهور يسمى " خزانة الأدب ولباب لسان العرب " وهو كتاب جليل ، شرح فيه شواهد " الكافية " وهى زهاء ألف بيت ، وترجم لأصحاب الشواهد ، وضمنه كثيراً من أخبار الأدب والتاريخ .

وقد جاء فى مقدمة بعض الكتب . التى أُلِّفتْ فى ذلك العصر ، وتضمنت هذا النوع من الأدب . تعليلاً لهذا الاتجاه ، إذ يقول المؤلف :

"لأن النفوس متشوقة الى شىء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم، وزماننا هذا لا يعيش فيه إلا من كان عنده طرف من التمسخر والخلاعة"[١]

ومما يثير الدهشة ، ويدعو الى الاستغراب حقاً ، أن يكون هذا الكلام صادراً من عالم من علماء الأزهر فى ذلك العهد ، وهو أمر يدل على مدى التحلل الأخلاقى والاستهانة بالآداب العامة ، والوصول الى درجة من الإسفاف والانفلات .

* **أسباب انحطاط الأدب** :

تعددت الأسباب التى أدت الى انحطاط الأدب فى هذا العصر ، وكان منها:

* خلو مصر فى تلك الفترة من الثروة العلمية والأبية التى تتمثل فى الكتب وفى المثقفين .

والتى كانت ميراثاً من العصر المملوكى ، وذلك أن العثمانيين أرادوا أن يجعلوا عاصمة الخلافة إحدى مدن الدنيا ، فنقلوا إليها كثيراً مما كانت تفخر به مصر ، ومن ذلك العلماء والأدباء ، ونفائس كتب العلم والأدب ، وفى مثل هذا الجو لا ينبغ عالم ، ولا يبرز أديب ، إلا إذا جاء واحد منهما فلتة من فلتات هذا العصر .

* عبث العثمانيين بالمدارس ، مما أدى الى زيادة الجدب فى حقول الثقافة .

* **يضاف الى ذلك من أسباب** : تعطيل ديوان الإنشاء الذى كانت له آثار بعيدة المدى فى ازدهار الأدب أيام الأيوبيين والمماليك .

---

[١] ـ من كتاب : " هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف " ليوسف الشربينى ، من علماء ووعاظ هذا العصر .

obeikandl.com

* فقدان الأدب من يرعاه ، والأدب إنما ينمو ويزدهر فى ظل حكام محبين له ، مشجعين لأهله ، مقربين لهم ، ولم يظفر الأدب بأى رعاية من سلاطين آل عثمان ولا من المماليك الذين كانوا ظلالاً لهم فى إدارة شئون البلاد ، وقديماً قال الشاعر :

قالوا تركتَ الشعرَ قلتُ ضرورةٌ
بابُ الدواعى والدوافع مُغْلَقُ
خلتِ البلاد فلا جوادٌ يُرتجى
منه النوال ، ولا مليح يُعْشَقُ

* ولعل من أهم الأسباب التى تذكر فى هذا المقام : تلك الحياة الصعبة التى كان الشعب المصرى يعيش فيها، فقد عانى من شظف العيش ، وضاق بالظلم والطغيان، ومعلوم أن الأديب إنما ينشط ، وينتج فكراً وأدباً ، حين تتوفر له لقمة العيش ، والحياة الكريمة ، ويشعر بقسط كبير من الحرية ٠

٤ نموذجان من الأدب فى العصر العثمانى :

فى هذه الأجواء التى يخيم عليها الظلام، لم تسكت ألسنة الأدباء ، وإنما عبرت عن الحالة السيئة فى البلاد بقدر الإمكان ، وبأسلوب هزلى ساخر ٠ وقد جاء تعبيرهم عن ذلك متكلفاً، ضيق الفكرة، محدود النظر ، يسير على هدى السابقين ، يقلدهم ويجول فى إطارهم ٠

* **ومن شعراء هذا العصر** :

الشيخ حسن البدرى [١] الذى يقول ساخراً من بعض علماء عصره الذين قدموا الدنيا على الدين [١] :

---

[١] ـ شاعر وناقد مصرى أزهرى ، عاش فى هذه الفترة ، وتوفى سنة ١١٢٧ هـ ٠

عن علماء عصرك لا تسألنْ

فـــإن أحـــوالهم ظـــاهرةْ

نفعُــك مــن جــانبهم منتــفٍ

فـى هذه الدنيا ، وفـى الآخرةْ

قــومٌ إذا لاح لهــم مَطْمــعٌ

تســارعوا كالأكلــب العــاقرةْ

والعمــل الصــالح مــا بيــنهم

همــتهم عــن فعلــهِ فــاترةْ

فالشاعر هنا يتوجه بنقده وسخريته الى علماء عصره ، الذين ساءت أحوالهم ، وفسدت دواخلهم ، فأصبح التماس النفع منهم فى أمور الدنيا والآخرة أمراً يصعب الحصول عليه ٠

ويسخر الشاعر ـ كذلك ـ من تصارعهم على مطامع الدنيا ، كتصارع الكلاب على الجيفة المنتنة بينما يقل عندهم العزم والمطمع فى الأعمال الصالحة ٠

وقد اعتمد الشاعر فى سخريته ـ هنا ـ على أسلوب المقارنة ، حيث قارن بين حال هؤلاء العلماء تجاه المطامع ، وبين حالهم تجاه العمل الصالح ، وبيَّن أنهم يسرعون الى الأول ، ويتقاعسون عن الثانى ٠

وبذلك استطاع هذا الشاعر ، أن يحوّل مظاهر الشقاء والحرمان فى حياته الى هزل ودعابة ، وإن لم تكن سخريته ـ هنا ـ عميقة بدرجة عمق الجرح الذى أصيبت به مصر فى تلك الفترة ، وإنما جاءت سطحية تشبه سطحية النفوس التى عاشت فى تلك الفترة ٠

---

[1] ـ تاريخ الجبرتى ، جـ ١ / ٨٢ ، طبعة مطبعة حسين حسنى بك ، القاهرة ١٢٩٧هـ

* **ومن النماذج النثرية**:

تلك الرسالة التى توجه بها "الشهاب الخفاجى" إلى صديق له يُدعى "عبد الوهاب المحلى " يقول له فيها :

" مولاى يشتكى من الدهر وهو أبو العِبَر ، وفى المثل : من سَابَقَ الدهر عَثَرَ ، فانتظرْ عُقَبَ الزمان عليك [1]، وكِلْ الى الله من أساء إليك ، فإن الدهر دُول ، وإن لله جنوداً من عسل [2] ... فأوقد مصباح فكرك إن أظلم الدجا ، واصبر فإن الصبر يفوح منه أرَجُ الرَّجا [3] ، وإن جَفَتْ قريش فلله أنصار ، وإن نبَتْ بك دار فلله ديار ، وإن كان انتظار الفَرَج عبادةً ، فإن أوقات الضيق كلها سعادة .. وقُرب الأشرار أعظم مصائب الأحرار "

فهذان النموذجان ليسا بالعمق والفكر المطلوب ، وإن كانا - فى نفس الوقت - قد عبَّرا عن روح العصر ، ولما ما كان يشغل حياة الناس من أغراض غير مهمة ، وانشغالٍ غيرِ قليل بالصنعة البديعية ، والزخرف اللفظى ، الذى يثقل كاهل الكلمات دون أن تتمخض عن معنى ذى أهمية .

****

[1] - عُقب الزمان : جمع عُقْبة ، وهى النوبة والبدل .
[2] - معناها أن الله - سبحانه - قد يهلك الإنسان بما يظن أن فيه لذته وشقاءه .
[3] - الأرج : الرائحة الطيبة .